الفصل الثالث

الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية

أ- فى مصر: حركة على بك الكبير .

ب- فى بلاد الشام :

١- حركة فخر الدين المعنى الثانى.

٢- حركة ظاهر العمر .

٣- حركة أحمد باشا الجزار.

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير يتبين لنا مدى الضعف الذى لحق بالدولة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربية وبخاصة الروسيا، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين، وحركة الأكراد فى شمال العراق والشام، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الاسود والافلاق والبغدان [١] ،والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة .ونتيجة لذلك أخذ بكوات المماليك فى مصر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثمانى، وأصبح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد، وفى النهاية استغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦ .

١- حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لا بد لنا من وقفة نعرض فيها لنشأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر.

الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد فى عام ١٧٢٨ فى بلده أبازة من أعمال القوقاز العثمانى، وكان والده واحد من قساوسة الكنيسة اليونانية، ويرغب فى أن يكون ابنه مثله قسيسا، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن فى اثناء رحلة صيد كان يقوم بها فى احدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك فى مصر [٢] وقد اعتنق يوسف الإسلام، وتسمى باسم على، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة فى ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه استاذه وولاه سنجقا، ثم زادت شهرته بعد نجاحه فى الضرب على أيدى البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا، فقربه سيده وجعله كاشفا [٣] وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد، وخلال ذلك أخذ على بك فى التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفى الوقت نفسه نشط فى وضع أتباعه فى المناصب

---

[١] محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة، دار الكر العربى ١٩٥٠ص٥.

[٢] محمد رفعت رمضان: المرجع السابق ص١٨-١٩.

[٣] محمد فؤاد شكرى: الحملة الرنسية وظهور محمد على، القاهرة، دار المعارف ص١٦.

الهامة [1] ، كما نجح فى تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريطهم فى المشاركة فى الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير فى تركيز السلطتين الحربية والادارية فى يده وبخاصة بعد نجاحه فى كسر شوكة العربان فى الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء [2] وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى الروسيا، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر [3] وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية، وفى عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا فى شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول أن على بك الكبير كان يرغب فى الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة فى ظل السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله " اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال: نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه، فبطحوه وضربوه بالعصى، فقام بعد ذلك متألما من الضرب، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غربيا وسيعود كما بدأ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم داراهم وكسوة واستسمحه " [4] .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليها المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم باقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الادارة، كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة. فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إنهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية، واضعاف قدرتها العسكرية ضد الروسيا [5] ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك، وافتئاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك [6] ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر.

---

[1] الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ١،القاهرة، المطبعة العامرة الشرفية ص٣٨٤.

[2] ميخائيل شارونيم: الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١.

[3] الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٣٨٤

[4] الجبرتى: المصدر السابق جـ٢، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف"

[5] محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٩.

[6] محمد رفعت رمضان: المرجع السابق ص٦٤.

ونظرا لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الاحمر وشواطئ الهند [1] ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين.

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة محمد بك ابو الذهب [2] إلىمكة، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩. وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين [3] فزاد ذلك من شهرته، وقوة شوكته. وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسيعية، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

١- اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر.

٢- انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا، وعدم تمكنها من إرسال النجدات العاجلة إلى بلاد الشام.

٣- علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثمانى، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .

٤- تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام .

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته، وخلال ذلك لقى أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة اخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق [4] ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهانى، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزينات، غير ان هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق، كما نادى أهالى الشام بالأمان [5] وكر عائدا إلى مصر، وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

---

[1] Irwin , Eyies ; Series of Adventures in the Course of Avoyage Up the Red Sea Dublin ١٧٨٠ Vol. P. ١٥٩.

[2] يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة، صار يفرق البقاشيش ذهبا وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء" الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٤٢٢.

[3] إبراهيم الطيب: مصباح السارى ونزهة القارى ص٢٣.

[4] شكرى : المرجع السابق ص ٢٤ .

[5] الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص ٣٨٥ .

١- اجتماع القائد العثمانى عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثمانى يخالف الشرف والامانة، كما أن استيلاءه علىدمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢- إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر .

٣- أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثمانى بالعفو عنه، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير .

٤- أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام .

٥- أن العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنما يعصى الله ورسوله، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام .

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا [١]. وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر، وانفتح الطريق امامهم إلى القاهرة، ولكن أبا الذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والالحاد، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاخضاع البلاد حتى يقضى على الدين الإسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا، وبقى فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨مايو ١٧٧٣م، وقد شكك الجبرتى فى طريقة موته، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته " [٢] .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية واعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة [٣] "واعترف بسيادتهم على مصر، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر.

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى انه مات بداء السكتة القلبية، ومنهم من قال انه مات بمرض الحمى، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه

---

[١] شكرى: المرجع السابق ص٢٨ - ٢٩.

[٢] الجبرتى المرجع السابق جـ١ص٣٨٥. وانظر أيضا فؤاد شكرى: المرجع السابق ص٣٠.

[٣] الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٤٢٣.

هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه [1] . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وابراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن، وانفلت زمام الامور من يد العثمانيين [2]

ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وابراهيم بك واخذا فى ابتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها، تقدمت الدول الاوربية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦، فارسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور [3] ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة، وظل الحال على هذا المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨م .

ثانيا: الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها فى يد العثمانيين فى أعقاب معركة مرج دابق عام ١٥١٦ إلى ثلاث إيالات هى

١- حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية.

٢- طرابلس وتشمل وسط الشام .

٣- دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وفلسطين واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذا استحدثت ايالة جديدة وهى صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفد حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق [4] وفيما يلى نعرض لحركات فخر الدين المعنى الثانى، وظاهر العمر الزيدانى، واحمد باشا الجزار.

حركة الأمير فخر الدين المعنى الثانى :

قام الامير فخر الدين المعنى بمحاولة لإقامة دولة مستقلة فى لبنان واستطاع أن يفرض سيطرته منذ النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى على القبائل البدوية فى البقاع وحوران وفلسطين ، وأن يمد نفوذه على مناطق الريف حتى حلب وانطاكية . ولكى يؤكد سلطته على هذه المناطق اتصل ببعض الدول الأوربية خاصة ايطاليا لمساندته فى الانفصال عن الدولة العثمانية ، كما تحالف مع بعض العصبيات المحلية داخل لبنان خصوصا مع الدروز والشهابيين ، واستطاع ادخال الحضارة الغربية إلى بلاده والاتصال بمظاهر المدنية الأوربية الحديثة ، وفتح أسواق بلاده لتجارة فلورنسا [5] ولما استفحل خطره ، وظهرت أطماعه فى الاستيلاء على العديد من بلاد الشام ومنها دمشق أرسلت إليه الدولة العثمانية

---

[1] تاريخ الأمير حيدر: نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان، القاهرة، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص٨٢٤.

[2] Charles Roux: L' Angleterre de Suez, et l' Egypte pp. ٢٠-٢١.

[3] Ibid : p . ١٩٥.

[4] رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧ ص ١٣٥ .

[5] كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٣.

الجيوش والأساطيل التى تمكنت من الاستيلاء على لبنان مما اضطره إلى الفرار لايطاليا والمكوث هناك حوالى خمس سنوات ثم العودة بعد ذلك إلى لبنان ، وتكوين جيش لمساندته فى الوقوف ضد العثمانيين ، وتلقيب نفسه بلقب أمير لبنان وصيدا والجليل .

وبعد أن تفرغت الدولة العثمانية من مشاكلها وجهت إليه القوات التى تمكنت من القبض عليه وارساله إلى الآستانة أسيرا حيث تم اغتياله هناك فى عام ١٦٣٥م ، كما دمرت امارته ونهبت وعاد إليها الحكم العثمانى التى كان بمثابة الكابوس المخيف للأهالى خاصة وانهم كانوا قد تنسموا رحيق الحرية فى عهد حكومة فخر الدين المعنى.

٢- حركة ظاهر العمر الزيدانى :-

بعد ان اختار اهل طبرية وصفد ظاهر العمر حاكما عليهم فى عام ١٧٣٣م ، أخذ فى تنظيم امور استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم فى فترة قصيرة صيدا ويافا وحيفا ونابلس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف فى وجهه أخفقوا فى مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه [١] ورغبته فى التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرمان من السلطان العثمانى بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته فى التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع على بك الكبير فى مصر .

ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا أستأثر ظاهر العمر بحكم عكا فى الفترة مابين ١٧٥٠- ١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداء بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخى نفوذها وتقوية مركزه ، فأخذ يبنى القلاع حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التى تدعم نفوذه فى هذه المنطقة [٢] ونتيجة لتحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير فى مصر ، أبدى كل منهما استعداده لنجدة الآخر فى حالة محاولة الدولة العثمانية الغدر بهما ، وقد أبدى على بك الكبير استعداده لنجدة ظاهرالعمر ومساعدته ضد عثمان باشا والى الشام ، وأرسل إليه جيشا مكونا من أربعة آلاف جندى لمعاونته .

وعندما أرسل على بك جيشا بقيادة محمد بك ابى الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية آزره ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخول دمشق إلا أن خيانة أبو الذهب لسيده قلبت الأمور رأسا على عقب وجعلت على بك يفر إلى فلسطين للاستنجاد بالشيخ ظاهر العمر فى محاولة لاستعادة مركزه فى مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهرالعمر المساعدات لنجدته فقد اندحرت قواته للمرة الثانية على أيدى أبى الذهب ، فأخذت العواصف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثمانى المسلح والقضاء على ظاهر العمر فى عام ١٧٧٥م وقتل معظم ابنائه وعودة النفوذ العثمانى إلى هذه المنطقة ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فقد أدى أنعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزار بحركة انفصالية أخرى فى محاولة لملء الفراغ السياسى فى تلك المنطقة فى الفترة مابين ١٧٧٦ - ١٨٠٤م .

---

[١] من أبرز الامثلة على ذلك حملة سليمان باشا والى دمشق إلى طبرية فى عام ١٧٣٣.

أنظر ميخائيل الدمشقى الخورى : تاريخ الشام ١٧٢٠- ١٧٨٢ تحقيق أحمد غسان سباتو ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٢ ص ٢٤.

[٢] فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢١.

٣- حركة أحمد باشا الجزار [١] ١٧٥٠ -١٨٠٤ م:

بدأ نجم أحمد باشا الجزار فى الظهور بعدما التحق بخدمة على بك الكبير فى مصر، إلا انه ما لبث أن فكر فى الهرب من مصر خشية بطش سيده، فتنكر فى زى المغاربة، وتوجه إلى دمشق حيث عمل فى خدمة واليها فترة، ثم اتجه إلى لبنان واتصل بالأمير يوسف الشهابى الذى أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التى كانت مهددة فى ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسى [٢]، وقد تمكن الجزار من السيطرة على زمام الموقف فى بيروت لفترة، إلا أن الأسطول الروسى سرعان ما هزم قواته هناك مما اضطره للرحيل إلى استنبول، وهناك استطاع أن يظفر بلقبى الوزارة والباشوية، وبمنصب ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة. وبعد أن برزت قدرة الجزار فى السيطرة على زمام الموقف، والقضاء على بقية الزيدانيين من أتباع ظاهر العمر، منحته الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا، فقام بتحصينها، كما عمل على زيادة ممالكيه وأنصاره. وخلال ذلك سعى الجزار للقضاء على أسرتى آل العظم والشهابيين [٣]، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلى لبلاد الشام.

وبعد أن سمع الجزار بتحرك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام، بدأ فى زيادة استحكاماته فى عكا، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوربيين، كما أوجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الانجليزى بقيادة "سيدنى سميث" مما جعل عكا صعبة المنال امام بونابرت وقواته وجعل رجالات الدولة العثمانية ينظرون إلى الجزار على أنه مطمح آمالهم فى النصر. ونتيجة لاستبسال الجزار وقواته فى الدفاع عن عكا، وتفشى مرض الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر بونابرت إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزار وعزز من مكانته أمام الناس، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق فى بلاد الشام، ولما خشيت الدولة العثمانية من ازدياد نفوذه أخذت تدبر له المكائد للقضاء عليه فتحالفت مع الأمير بشير الشهابى ضده ولكن الجزار فوت هذه الفرصة على أعدائه، وحاول أن تظل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لاعلان ولائه للسلطان، وظلت الأمور على حالها حتى توفى الجزار فى ١٢١٩هـ/أبريل ١٨٠٤م وهو فى ذروة قوته وسلطانه.

وعلى أى حال فقد كانت سياسة الدولة العثمانية هى التفرغ أولا للجبهات الخارجية ضد الروسيا فى حروب القرم، وضد الصفويين فى بلاد فارس، ثم انتهاز الفرص المناسبة للقضاء على التمردات المحلية ضدها بعد ذلك. والسؤال المطروح هو هل كانت هذه الحركات التى قامت ضد الدولة العثمانية معبرة عن آلام الناس وآمالهم أم كان هدفها الحكم والسيطرة الواقع ان هذه الحركات كانت فى مجملها فردية، اثارتها دوافع ونزعات شخصية اكثر من كونها حركات تعبر عن مشاعر الناس وأحاسيسهم.

---

[١] اسمه الحقيقى أحمد البوشناقى ، وأطلق عليه لقب الجزار لشدته وصرامته واسرافه فى القتل وسفك الدماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

أنظر الأمير أحمد حيدر الشهابى : لبنان فى عهد الشهابيين - تحقيق أسد رستم وفؤاد البستانى ، القسم الأول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣ ص ٩٦ .

[٢] محمد جميل بيهم: الحلقة المفقودة فى تاريخ العرب، القاهرة ، مطبعة البابى الحلبى، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠ص٥٦.

[٣] للتفاصيل انظر الشهابى: المصدر السابق ص١٦٠-١٦٥.